﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾ [الزمر: 71 - 72]

❁ مُناسَبَةُ الآيتينِ لِما قبلَهُما:

الانتقالُ مِن مقامات الحسابِ إلى مقامات الجزاءِ

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة مواقفَ العباد يوم القيامة، وأنَّه سيُقضى بينهم بالحقِّ، ولن يُظلم أحدٌ فيما نزل في حقِّه مِن حكم الله تعالى؛ ناسب الانتقال إلى نتيجةِ القضاء، وهو السَّوق إلى المآل في الجنَّة أو النّار، فإنَّ وضْعَ الكتابِ وإحضار الشُّهداء، والقضاء بينهم بالحقِّ، ما كان إلّا لهذه الغايةِ الَّتي هي مصير العبادِ في الآخرةِ، وناسب أن يبتدئ بأهل الكفرِ؛ لأنَّه لمّا كان الأغلبُ على هذه المقاماتِ التَّحذير؛ قدَّم في هذه التَّوفيةِ حالَ أهلِ الكُفرِ(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسِيقَ﴾: (سوق) أصلٌ واحِدٌ، وهوَ حَدْوُ الشَّيءِ، يُقالُ: ساقَهُ يَسوقُهُ سَوقًا، والسَّيِّقَةُ: ما استيقَ مِنَ الدَّوابِّ، ويُقالُ: سُقْتُ إلَى امرَأتي صَداقَها، وأسَقْتُهُ، والسّوقُ مُشْتَقَّةٌ مِن هَذا، لِما يُساقُ إلَيها مِن كُلِّ شَيءٍ، والجَمعُ أسواقٌ، والسّاقُ للإنسانِ وغيرِهِ، والجَمْعُ سوقٌ، إنَّما سُمّيَتْ بِذَلِكَ؛ لأنَّ الماشيَ يَنساقُ عَلَيها، والمَصْدَرُ السَّوَقُ(2)، وسيق أصلُهُ سَوق فعل ماضٍ بُني لما لم يُسمَّ فاعلُهُ، فصار: سوِقَ؛ لأنَّه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 564.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوق).

مِنَ السَّوْق، استُثقِلَتِ الكسرةُ على الواو، فأُسكِنَت، ونُقِلَت حركتها إلى ما قبلها، ثم أُبدِلتِ الواوُ ياءً، وقاعدته: أنَّ الواو إذا سكِّنت، وانكَسَر ما قبلَها؛ انقلبتْ ياء، كما في ميعاد، وميزان[1]، والمقصود بالسَّوْقِ في الآيةِ قيادةُ أهل الكافرين إلى منتهى أمرهم في النّار.

2) ﴿زُمَرًا﴾: (زمر) يَدُلُّ عَلى قِلَّةِ الشَّيءِ، فالزُّمرَةُ فالجَماعَةُ[2] القَليلةُ، ومِنها قيلَ: شاةٌ زُمرةٌ قَليلَةُ الشَّعرِ، ورَجُلٌ زُمُرٌ قَليلُ المروءَةِ، وقالَ بَعضُهُم: اشتِقاقُ الزُّمرةِ مِنَ الزَّمرِ، وهوَ الصَّوتُ؛ إذ الجَماعةُ لا تَخلو عَنهُ غالبًا، والزُّمَرُ: الأفواجُ المُتَفَرِّقةُ بَعضُها في أثَرِ بَعضٍ، والطَّبَقاتُ المُختَلِفَةُ، وزُمَرُ الَّذينَ كَفَروا مُترتِّبَةٌ حَسْبَ تَرتيبِ دَرَكاتِهم في الضَّلالَةِ والشَّرارَةِ[3].

3) ﴿خَزَنَتُهَآ﴾: (خزن) أصلٌ يَدُلُّ عَلى صيانَةِ الشَّيءِ، يُقالُ: خَزَنْتُ الدِّرْهَمَ وغَيْرَهُ خَزْنًا، وخَزَنْتُ السِّرَّ[4]، والخَزَنةُ في الآيَةِ: جَمْعُ خازِنٍ، ويُقالُ: خَزّان وخَزَن، والخازن هو كالبوّاب، وخَزَنَتُها، أي: جهَنَّم من الزَّبانيَةِ الذَّين هم غِلاظُ الأخلاقِ، شِدادُ القوى، يقولون على وجهِ التَّقريعِ والتَّوبيخِ والتَّنكيلِ للكفار: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، وجاء ذِكر عددِهم في قوله سُبحانَه: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾ [المدثر: 30][5].

4) ﴿حَقَّتْ﴾: (حقق) أصلٌ واحِدٌ، وهوَ يَدُلُّ عَلى إحْكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِهِ، فالحَقُّ نَقيضُ الباطِلِ، ثُمَّ يَرجِعُ كُلُّ فَرعٍ إلَيهِ بِجَودَةِ الاستِخراجِ وحُسنِ التَّلفيقِ، ويُقالُ: حَقَّ الشَّيءُ: وجَبَ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[6]، والحَقُّ نَقيضُ الباطِلِ؛ لأنَّ حقَّ الشَّيء يَحِقُّ حَقًّا، أي: وجَبَ وُجوبًا[7]، وحَقَّهُ يَحُقُّهُ حَقًّا وأحَقَّه، كِلاهُما أثْبَتَهُ، وصارَ عِنْدَهُ حَقًّا لا يَشُكُّ فيهِ[8].

5) ﴿فَبِئْسَ﴾: (بأس) أصلٌ واحِدٌ، الشِّدَّةُ وما ضارَعَها، فالبَأْسُ الشِّدَّةُ في الحَرْبِ، ورَجُلٌ ذو بَأْسٍ وبَئيسٌ، أي: شُجاعٌ، وقَد بَأسَ بَأسًا، فَإنْ نَعَتَّهُ بِالبُؤْسِ؛ قُلْتَ: بَؤُسَ، والبُؤْسُ:

(1) الحميري، شمس العلوم: 1/ 58.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زمر).
(3) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن: (زمر)، والزمخشري، الكشاف: 4/ 146، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 286.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزن).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 264.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(7) الخليل، العين: (حق).
(8) ابن سيده، المحكم: 2/ 472.

الشِّدَّةُ في العَيْشِ، والمُبتَئِسُ: المُفْتَعِلُ مِنَ الكَراهَةِ والحُزْنِ[1]، ومنه البَئِسُ، والبَيِسُ على فَعِل: العَذاب الشَّديد، قال تعالى: ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: 165][2]، وبِئس: فعلٌ جامدٌ للذَّمِّ، ضدَّ (نِعْمَ) في المَدْح، وفي التَّنْزيل العَزيز: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: 29][3]، ولا يَعْمل (نِعْمَ وبِئسَ) في اسم علم، إنَّما تعملان في اسم منكَّر، دالٍّ على جنس، أو اسم فيهِ ألفٌ ولامٌ يدلُّ على جنس[4].

6) ﴿مَثْوًى﴾: (ثوى) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى الإقامَةِ[5]، والثَّواءُ: طولُ المُقام، وقد ثَوَى يَثوي ثَواءً، والمَثوى: الموضع[6]، قالَ أبو عَليٍّ: المَثوى عِندي في الآيَةِ اسمٌ لِلمَصدَرِ دونَ المَكانِ لِحُصولِ الحالِ في الكَلامِ مُعمَلًا فيها، ألا تَرَى أنَّه لا يَخْلو مِنْ أن يَكونَ مَوضِعًا أو مَصْدَرًا؟ فَلا يَجوزُ أن يَكونَ مَوضِعًا؛ لأنَّ اسمَ المَوْضِعِ لا يَعْمَلُ عَمَلَ الفِعْلِ؛ لأنَّه لا مَعْنَى لِلفِعلِ فيهِ، فَإذا لَم يَكُن مَوضِعًا؛ ثَبَتَ أنَّه مَصدَرٌ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سَوقُ الكافرين إلى مثواهم السَّرمديِّ وتبكيتهم لاختيارِهم ذلك

بَيَّنَتِ الآيتان الكريمتان أنَّ الملائكةَ يسوقون الكافرين باللّٰه إلى جهنَّم جماعاتٍ ذليلةً، حتى إذا جاؤوا جهنَّم؛ فتحت لهم خزنتُها من الملائكة الموكَّلين بها أبوابَها، واستقبلوهم - بالتَّوبيخ - قائلين لهم: ألم يأتِكم رسلٌ مِن جنسكم يقرؤون عليكم آياتِ ربِّكم المنزلة عليهم، ويخوِّفونكم لقاء يوم القيامة، لما فيه مِن عذابٍ شديدٍ؟ قال الَّذين كفروا مُقِرّين على أنفسِهم: بلى، قد حصل كلُّ ذلك، ولكن وجبت كلمةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بأس).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (بأس).
(3) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (بئس).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: 3/ 11.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوى).
(6) الخليل، العين: (ثوى).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (ثوى).

العذاب على الكافرين، ونحن كنّا كافرين، قيل لهم؛ إهانةً لهم وتيئيسًا من رحمة الله، ومن الخروج من النّار: ادخلوا أبوابَ جهنَّم ماكثين فيها أبدًا، فساءَ، وقبحَ مَقَرُّ المتكبِّرين المتعالين على الحقِّ، والمُتكبِّرينَ عَلى اللهِ في الدُّنْيا أن يوَحِّدوهُ، ويُفْرِدوا لَهُ الأُلوهَةَ، جَهَنَّمُ يومَ القيامَة[1].

وترشدُ الآيتانِ الكريمتان إلى أنَّ أهلَ النّار يُفاجَؤون بها، فمن حين إتيانِهم تُفتَح؛ ليَكونَ ذلك أشَدَّ مُباغتةً وأشَدَّ حَرارةً - والعياذُ بالله - فلا يُمَكَّنون مِنَ الصَّبر عنها طَرْفةَ عَيْنٍ، مع أنَّهم يَوَدّون أنَّها لا تُفتَح، وإلى اجتِماع العَذاب القلبي والبدَني عليهم، وإلى تَمام إقامة الله الحُجَّة على بني آدَمَ بإرسال الرُّسُل منهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو وفائدتها:

رَبْـطُ المَشاهِدِ؛ لإظْهارِ التَّبايُنِ

الواوُ في قَولِه تَعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾، واوُ العَطف، وهيَ تُفيدُ عَطْفَ الجُملَةِ عَلى الجُمْلَةِ؛ إذ تَتَحَدَّثُ الآياتُ السّابِقَةُ عَن مَشهَدِ القيامَةِ ومَصيرِ كُلٍّ مِنَ الفَريقَين إجمالًا، ثُمَّ تَنتَقِلُ إلَى بَيانِ مَصيرِ الكافِرينَ، ودلالَةُ العَطْفِ هُنا هي رَبْطُ هَذِهِ المَشاهِدِ؛ لإظهارِ التَّبايُنِ بَينَ المَصيرَيْنِ المُختلفَيْنِ في توضيحِ تَمايُزِ النِّهاياتِ بِناءً عَلى الإيمانِ والكفر.

نكتةُ استعمال مفردة السَّوق:

سَـوْقُ الكافِرينَ بِعُنْفٍ وإزعاجٍ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردةِ ﴿وَسِيقَ﴾؛ لما فيها مِنَ الحَثِّ عَلَى المَسيرِ بِعُنْفٍ وإزعاجٍ، أي: سيقوا إلَيها بالدَّفع والعُنْف والإهانَة، أفواجًا مُتَفَرِّقَةً، بَعضُها في أثَرِ بَعضٍ، مُتَرَتِّبَةً حَسَبَ تَرَتُّبِ طَبَقاتِهم في الضَّلالَةِ والشَّرارَةِ[3]، والسَّوْق أن يُجعل الماشي ماشيًا آخر يسير

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 337، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن، ص: 466.
(2) العثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 484 - 485.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 286.

أمامَهُ ويلازمه، وضدُّهُ القود، والسّوق مشعرٌ بالإزعاج والإهانة، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنفال: 6][1]، فجمع هذا اللَّفظُ بين الإهانةِ والعنف، وهو المناسب للكافرين في ذلك الموقف المهيب، واستعمالُهُ في حقِّ المؤمنين للمشاكلةِ، كما سيأتي.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل (سيق):

سَوقُ الكافرين حـــقٌّ قـــادمٌ وعذابُهم حتمٌ لازمٌ

جاء التَّعبيرُ بالماضي (سيقَ) عَلى إرادَةِ الاستقبالِ؛ لأنَّهُ إخبارٌ عَنِ الأحداثِ المُستَقبَلَةِ مَعَ قَصْدِ القَطعِ بِوُقوعِها، والقَصد تَحقيقُ الوُقوع، فهو من باب الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة بتشبيه ما لم يقع بما هو واقع بجامع التّحقّق، فَكَما أنَّهُ لا شَكَّ في حُدوثِ الفِعلِ الماضي، كَذَلِكَ لا شَكَّ في حُدوثِ هَذِهِ الأفعالِ؛ إذْ هيَ بِمَنزِلَةِ الماضي في تَحقيقِ الوُقوعِ[2]، كَما أنَّ هَذا الفِعلَ في الماضي قَد جاءَ مَبنيًّا لِلمَفعولِ إشارَةً إلى أنَّهُم وصَلوا إلَى أقصَى ما يَكونُ مِنَ الذُّلِّ بِحَيثُ إنَّهُم يَمتَثِلونَ قَولَ كُلِّ قائِلٍ[3]، وكذلك حتّى ينشغلوا بفعل السّوق نفسه بغضّ النّظر عمّن يسوقهم.

نُكتَةُ البَدءِ بِذكرِ سَوقِ الكافِرينَ:

تَهيئَةُ النَّفسِ لِلتَّفَكُّرِ في نَقيضِ العَذابِ

بدأت الآيةُ بذكر سَوقِ الكافرين، في قَولِهِ تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾، وتقديمُهُم يُبرِزُ التَّناسُقَ في تَصويرِ المَشهَدِ يَومَ القيامَةِ، حَيثُ يُظهِرُ عَدلَ المَلِكِ الحَقِّ سُبحانَهُ في التَّمييزِ بَيْنَ المُذنبينَ والمُتَّقينَ بِأُسلوبٍ بَليغٍ مُؤَثِّرٍ، مُتَّسِقٍ تَمامًا مَعَ تَرتيبِ الأحداثِ وجَرَيانِها، فَسَوقُ الكافرينَ عاجِلٌ مُقترِنٌ بِالرَّهبةِ والإذلالِ إلى مَصيرِهِم، وربَّما قدَّموا لكثرة عددِهم[4]، ويَبقَى المُؤمِنونَ في مَقامِ التَّكريمِ والطُّمَأنينَةِ، يَنتَظِرونَ دُخولَهم إلَى الجَنَّةِ في مَوكِبٍ مَهيبٍ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 69.
(2) السامرائي، معاني النحو: 3/ 314.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 566.
(4) الهلال، تفسير القرآن: 24/ 41.

ولا يَخْفَى ما في ذَلِكَ مِن تَعجيلٍ بالعُقوبَةِ لَهُم، وعَدَمِ الإنظارِ؛ نَكايَةً بِهِم، وهوَ يَحْمِلُ ضِمْنًا رِسالَةً تَحذيريَّةً لِلمُخاطَبينَ، ليأخُذوا العِبْرَةَ، فَيُدْرِكوا سوءَ عاقِبَةِ الكُفْرِ والطُّغيانِ، كَما أنَّ في تَقديمها - أعني العُقوبَةَ عَلى الثَّوابِ - إبرازًا لِمَشهدِ العِقابِ، وهَذا فيهِ ما فيهِ مِن تَهيئَةِ نُفوسِ المُؤمنينَ لِلتَّفَكُّرِ في النَّقيضِ، وهوَ الثَّوابُ، فَيَكونُ وقْعُ نَعيمِ المُؤمنينَ حينَئِذٍ أعظَمَ وأبلغَ.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول:

الكُفْرُ أساسُ العَذابِ والجَزاءُ مُرْتَبِطٌ بِالفِعْلِ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ الاسم الموصول في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾؛ ذمًّا لهم وذلك للاستشهاد على الكافرين بما في حيِّز الصِّلة، فالاسمُ المَوصول مَعَ صِلَتِهِ يدلُّ على أنَّ الكُفْرَ هوَ الفعلُ الَّذي يَستَحِقُّ العُقوبَةَ، مِمّا يُعَمِّقُ الوَعْيَ بأنَّ الحُكْمَ مُرْتَبِطٌ بالعَمَلِ نَفْسِهِ، بَدَلًا مِنْ مُجَرَّدِ وصفِهِم بالكُفْرِ، فَإنَّ الإشارَةَ إلَى فِعلِهِمْ بِوُضوحٍ في قَولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ تُبرِزُ السَّبَبيَّةَ الَّتي هيَ أساسُ العَذابِ، وهوَ كُفْرُهُم، كَما يُضيفُ هَذا الأُسلوبُ، إلَى المَعنى نَوعًا مِنَ التَّفْصيلِ والشَّرْحِ، مِمّا يُعَزِّزُ التَّأْثيرَ البَلاغيَّ، ويوضِّحُ أنَّ العُقوبَةَ مُرتَبِطَةٌ بِما فَعَلوهُ، ويَزيدُ مِن قوَّةِ النَّصِّ في تَرسيخِ الفِكْرَةِ بِأنَّ الجَزاءَ مُرتبِطٌ بالفِعلِ.

نكتةُ استعمالِ عنوان الكفرِ دون الشِّرك:

كلُّ مَنْ خالفَ التَّوحيدَ فداخلٌ في الوعيد

استعمل النَّظمُ الكريمُ مفردةَ الكفر في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾؛ ليعمَّ اللَّفظُ جميعَ الكافرين، من المشركين وأهل الكتاب والملاحدةِ والوثنيّين، ولو ذكر الشِّرك، فقال: (الذين أشركوا)؛ لاقتصر الأمرُ على فئة خاصَّةٍ، والمقصودُ عمومُ الكافرين باللّه تعالى.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿زُمَرًاۖ﴾:

جاء استعمالُ مفردة (الزمر) في قولهِ تَعالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ

تَصويرُ مَشهَدِ القيامَةِ وحال سَوْق الكافرين ومَآلهم

﴿كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾، وهو جمع زُمْرةٍ، وهي الفوجُ من النّاس المتبوع بفوج آخرَ، فلا يُقال: مرَّت زمرةٌ مِنَ النّاس، إلّا إذا كانت متبوعة بأخرى، وهذا مِن الألفاظ الَّتي مدلولها شيءٌ مقيَّد، وذلك لأنَّهم جعلوا زمرًا لاختلاف درجات كفرِهم، فإن كان المرادُ بالَّذين كفروا مشركي قريشٍ المقصودين بهذا الوعيد؛ كان اختلافُهم على حسب شدَّة تصلُّبهم في الكفر، وما يخالطُه من حدبٍ على المسلمين أو فظاظة، ومن محايدة للنَّبيِّ ﷺ أو أذى، وإن كان المرادُ بهم جميعَ أهلِ الشِّرك كما تقتضيه حكاية الموقف مع قوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ﴾؛ كان تعدُّد زمرِهم على حسب أنواع إشراكِهم[1]، ومفردة ﴿زُمَرًاۖ﴾ تُبَيِّنُ فيها هيئَةَ السَّوقِ في المَشهَدِ، فهي حالٌ، أي: مُبَيِّنَةً هيئَةَ الَّذينَ كَفَروا في ذَلِكَ السَّوقِ، في تَصويرٍ لِلمَشهَدِ وتَوضيحٍ لكَيفيَّةِ حُدوثِ (السَّوقِ)، وهوَ عَلى شَكلِ جَماعاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وليسَ كأفرادٍ أو جَميعِهِم دُفعَةً واحِدَةً، بَل إنَّهُم يُعامَلونَ بِحَسَبِ أصنافِهِم أو جَرائِمِهِم، فَيُساقُ كُلُّ صِنْفٍ بِحَسَبِ نَوْعِ كُفْرِهِ، أو مُستَوى إجرامِهِ، مِمّا يُبرِزُ الإهانَةَ والذُّلَّ الَّذي يُصيبُهُم في هَذا المَوقِفِ.

نُكْتَةُ تَنكيرِ لفظِ ﴿زُمَرًاۖ﴾:

التَّنْكيرُ يَعكِسُ شِـدَّةَ الـعَـذابِ وتَعَدُّدَ طُرُقِهِ

جاءت كَلِمَةُ ﴿زُمَرًاۖ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ مُنَكَّرَةً، مُنَوَّنَةً بِتَنْوينِ التَّمكينِ؛ إذِ النَّكِرة أخَفُّ، فَألحَقوها التَّنْوينَ؛ دَليلًا عَلى الخِفَّةِ[2]، وتَضَمُّنُهُ مَعنى التَّنْكيرِ لِلدَّلالَةِ عَلى التَّعَدُّدِ والتَّنَوُّعِ والكثرة في الجَماعاتِ الَّتي سَتُساقُ إلى جَهَنَّمَ، فالتَّنوينُ هُنا يُضيفُ مَعنى التَّجريدِ والعُموميَّةِ، مِمّا يوحي بِأنَّ الكافِرينَ سَيُساقونَ في جَماعاتٍ عدَّة أو فِرَقٍ، ولِكُلٍّ مِنهُم حالُهُ وصِفَتُهُ الخاصَّةُ، وتَنَوُّعُ هَذا السَّوقِ في تِلكَ الجَماعاتِ؛ لإبرازِ عَظَمَةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 69.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 1/ 64.

وعِقابِ جَهَنَّمَ، وإظهارِ شِدَّةِ العَذابِ وتَعَدُّدِ طُرُقِهِ، والتَّنوينُ هُنا قَد أكسَبَ المَشهَدَ انطِباعًا بِأنَّ هَذا السَّوقَ إلى العَذابِ لَيسَ أمرًا واحِدًا مُتَكَرِّرًا، بل يَحدُثُ بِتَنَوُّعِ الطُّرُقِ المُختَلِفَةِ.

نوعُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالتُها السّياقيَّة:

الغايةُ المؤلمة للكافرين تتحقَّقُ في دارِ العقوبةِ

استعملَ النَّظمُ الكريم أداة ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قَولِه تَعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾؛ للدَّلالة عَلى مَعنى الغايَةِ[1]، وبَيانِ الحَدِّ الزَّمَنيِّ الَّذي يَصِلُ فيهِ الكافرونَ إلَى جَهَنَّمَ؛ إذْ تُبَيِّنُ أنَّ الوصولَ إلى جَهَنَّمَ هو الغايَةُ الَّتي يَتَّجِهونَ إليها، وحينها يَكونُ المَعنى: وسيقَ الَّذينَ كَفَروا إلى جَهَنَّمَ زُمَرًا، إلى أن تُفتَحَ أبوابُها وقْتَ مَجيئِهِم، فَيَنقَطِعَ السَّوقُ[2].

وأجازَ الزَّمَخشَريُّ كَونَها جارَّةً لـ﴿إِذَا﴾ بِمَعنى الوَقتِ، وعَلى هَذا لا تَكونُ حينَئِذٍ ظَرفًا، وجَوَّزَ كَونَها حَرفَ ابتِداءٍ[3]، وتَكونُ دلالتُها حينَئِذٍ لإيصالِ المَعنى الزَّمَنيِّ، بِمَعنى "إلى أن"، أي: إنَّهم سَيَصِلونَ إلى جهنَّمَ في وقت مُعيَّنٍ، وإن جَعَلْتَ "حتَّى" حَرفًا دالًّا على الابتداءِ، فتَكونُ الجُملَةُ التّاليَةُ: ﴿إِذَا جَآءُوهَا﴾ مُؤذِنةً بِمَشهَدٍ جَديدٍ، مِمّا يُضيفُ عُنصُرَ التَّأثيرِ في الحَدَثِ وتَحديدِهِ.

بَلاغَةُ التَّعبيرِ بِالجُملَةِ الشَّرطيَّةِ:

الإيماءُ إلى ترتُّبِ الأحداثِ في خريطةِ بلوغِ أبوابِ جهنَّم

قولُهُ تَعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ جاءَ مُحتَوِيًا عَلى أداةٍ شَرطيَّةٍ، وفِعلِ شَرطٍ وجوابه، والشَّرطُ أسلوبٌ خبريٌّ يعني اقترانَ أمرٍ بأمرٍ آخرَ، بحيثُ لا يتحقَّق الأمرُ الثّاني، إلّا بعدَ تحقُّقِ الأمر الأوَّل، وذلك بوجود أداة الشَّرط، وهَذِهِ الجُملَةُ تُؤَكِّدُ حَتْمِيَّةَ وُقوعِ الحَدَثِ، وتُضيفُ إلَيهِ طابِعًا مُؤَكَّدًا في المُستَقبَلِ، فأداة (إذا) تجيء لوقتٍ معلومٍ، وهي للمقطوع بحصوله[4]، وهذا يعَزِّزُ مِنَ

(1) الزجاجي، حروف المعاني، ص: 64، وابن عقيل، شرح ابن عقيل: 2/ 114.
(2) أبو حيان، التذييل والتكميل: 7/ 322.
(3) ابن عقيل، المساعد: 7/ 322.
(4) سيبويه، الكتاب: 1/ 433، والسامرائي، معاني النحو: 4/ 71.

الإحساسِ بيَقينيَّةِ الحَدَثِ، وجَعْلِ المتلقّي يُدرك بِأنَّ هَذا المَصيرَ - لا مَحالَةَ - قادِمٌ، والبَلاغَةُ في الجُملَةِ الشَّرطيَّةِ تَظهَرُ من خِلالِ مُلاحَظَةِ العَقدِ والرَّبطِ بَينَ الشَّرطِ والجَزاءِ، بِطَريقَةٍ تجعَلُ العَذابَ مُرتَبِطًا بِشَكلٍ مُباشِرٍ، وواضِحٍ بالكُفرِ، وهيَ تُضيفُ بُعدًا زَمَنيًّا يوَضِّحُ تَرتيبَ الأحداثِ، ويَجعَلُ التَّأثيرَ البَلاغيَّ أعْمَقَ، مِمّا يُعَزِّزُ مِن قوَّةِ النَّصِّ وتَأثيرِهِ في النَّفْسِ.

نكتةُ استعمالِ أداة ﴿إِذَا﴾ دون (إن):

آثرَ النَّظمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ استعمالَ أداة الشَّرط ﴿إِذَا﴾ دون (إن)؛ وذلك لأنَّ (إذا) فيها معنى الظَّرفيَّة، فهي لتعيين نقطة التقاء الحدثين، ولذلك سمّاها المبرد (مؤقِّتة)، وكأنَّها تضطلع بتعيين وقتِ حدوث الحدثِ الرَّئيس في الجملة[1]، وابن مالك عدَّها محمولةً على (متى)، فهي تساوي من حيثُ الدَّلالةُ (متى ما)[2]، فهي شرطيَّة تفيد اليقين؛ إذ تدلُّ على وقوع الشَّيء في المستقبل، عند تحقُّق شرط معين، وتُستخدم عندما يكون الحدث المتوقَّع محقَّقًا أو مؤكَّدًا؛ إذ تدلُّ على وقوع الفعلِ بالتَّأكيد عند تحقُّق الشرط، بخلافِ (إن) فهي تدور حول الاحتمالِ، وهذا إن كانت غيرَ جازمةٍ، أمّا إن جيء بها جازمةً؛ فهي تُستخدم للدَّلالة على وقوع الشَّيء بشرط التَّحقُّق، لكنَّها أقلُّ يقينًا من (إذا)؛ لذلك استعملت الآية في هذا السّياق ﴿إِذَا﴾، لبيانِ تحقُّقِ الوعيدِ ويقينيَّته.

القطعُ بيقينِ فتحِ أبوابِ جهنَّم عند مجيءِ الكافرين

لطيفةُ تعدية فعل المجيء بنفسِهِ:

عُدّي الفعلُ (جاؤوا) بنفسه دون التَّعدية بحرف (إلى)، وذلك لتضمينهِ معنى فعلِ الإتيان، وذلك لغرضٍ سياقيٍّ، وهو تعزيزُ التَّأكيد واليقين في وصول الكافرين إلى جهنَّم، فالفعل (جاؤوا) عبَّر عن

حتميَّةُ الوقوفِ على باب جهنَّم يختلف عن بيانِ الطَّريق إليها

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 60، والمُبرِّد، المُقتضب: 2/ 55، والفراء معاني القرآن: 2/ 103.
(2) ابن مالك، التَّسهيل، ص: 237.

القدوم المؤكَّد والمباشر إلى المكان، مع الإفصاح الكامل عن حتميَّة العقاب، وعدم وجود أيِّ تردُّدٍ أو شكٍّ في وقوعه، ممّا يُضيف قوَّةً في التَّعبير عن عدل اللّهِ تعالى، كما أنَّ حذفَ حرف الجرِّ يساهم في تقوية المعنى وإضفاء المباشرة على الحدث، ممّا يجعل الوصول إلى جهنَّم محقَّقًا ومؤكَّدًا، فإنَّ مجيءَ جهنَّم ليس كالمجيءِ إليها، فالأوَّل فيه حتميَّة الوقوف على بابها، والآخر في طريق الوصول إليها.

غرضُ بناء الفعل للمفعول ﴿فُتِحَتْ﴾:

فـتـحُ أبـوابِ جـهـنَّـم أعـظـم مـمّـا يـتـصـوَّره الـبـشر وأرهـب مـمّـا يُـخـيَّـل للمتأمِّلِ

تتجلّى الأساليب القرآنيَّة في تصوير المشاهد الغيبيَّة بروح حيَّة، تجعل المتلقّي يعيش المشهدَ بكلِّ عمقهِ وجلاله، فتُطلقُ خياله ليعوِّض قصورَ حواسِّه عن إدراك ما وراءَ المحسوس، وتتبدَّل الأفعال والجمل انسجامًا مع تنوُّع الأحداث، وتعدُّد الشَّخصيّات؛ لتصبحَ كلُّ كلمةٍ حقيقة أمام العيان، فتبدو ثابتةً، دامغة، لا تقبل جدالًا ولا نزاعًا، كما في قولهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، فالإتيانُ بالفعل مبنيًّا للمفعول، فيه دلالةٌ على تحقُّق الحدث أكبر وأعظم من كونهِ مبنيًّا للفاعل، وعليه فإنَّ تلك الأبوابَ قبل مجيئهم لم تكن مفتوحةً، فهي كسائرِ أبواب السُّجون لا تزال مغلقةً حتى يأتي أصحابُ الجرائم، الَّذين يُسجنون فيها، فتُفتح ليدخلوها، فإذا دخلوها؛ أُغلِقَت عليهم، قال مقاتل: "أُطبِقت الأبواب عليهم، ثمَّ شُدَّت بأوتادٍ من حديد؛ حتى يرجعَ عليهم غمُّها وحرُّها"[1].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

تفتيحُ الأبـواب تـكـرارٌ وفتحها بالجملة بغرض الدُّخول

تعدَّدت أوجهُ القراءة في قوله تعالى: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾؛ إذ قَرَأ عاصِم وحمزة والكسائيُّ وخلف العاشر: ﴿فُتِحَتْ﴾ بتخفيف التّاء في موضعَي السّورة، وقرأ الباقونَ بتشديدِهما[2]: (فُتِّحَتْ)، فحجَّةُ

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 604.
(2) ابن الجزري، النشر: 3/ 282.

مَن خفَّف: أنَّ الفعلَ الماضي مبنيٌّ للمفعول مِن (فَتَحَ) الثُّلاثيِّ، وقد دلَّ بذلك على فتحها مرَّةً واحدةً، فكان التَّخفيف أولى؛ لأنَّ الفعلَ لم يتردَّد، ولم يكثر، وهو صالحٌ للقليل والكثير[1]، وحجَّة مَن شدَّد أنَّ الفعل الماضي المبنيَّ للمفعول من (فَتَّحَ) مضعَّف العين، فأراد تكرير الفعل؛ لأنَّ كلَّ بابٍ منها فُتِحَ[2].

نوعُ الواو ومعناها:

الجملُ المتعاطفةُ ثراءٌ للمشهدِ وكشفٌ للموقف

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾، عاطفةٌ[3]؛ إذ جيءَ بها لعطفِ الجملة الَّتي هي إعلانُ الخزنة ذلك الاستفهام التَّوبيخي، لِمَن سيق إلى النار، فالواو جاءَت تفصيلًا لما حدث قبلها، وتُفهم الجملة على أنَّها جزءٌ مِن سردٍ للأحداث، في سياق الحساب أو العقاب، حيث تُعطف الجملة على جمل أخرى تسبقها، لربط المعنى، حتّى تكتمل بذلك صورة المشهد.

نوعُ اللّام ودلالتها:

لامُ الاختصاص تفخِّم مشهد التَّبكيت

عبَّر النَّظمُ القُرآني باللّام في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾، وهي لام الاختصاص، وتُعرف أيضًا بلام التَّبليغ، أو لام التَّوجيه[4]، فهي تبرزُ العلاقةَ بين الفعل (قال)، ومَن وُجِّهَ إليه القولُ، وهم (الكافرون)، وإبراز أنَّ الخطاب موجَّهٌ إليهم، خاصًّا بهم دون غيرهم، وهي هنا ذاتُ دَلالةٍ بلاغيَّةٍ تكمُن في تعظيم المشهد، وإظهار عنصر إهانة الكافرين وتوبيخهم المباشر.

نكتةُ تقديم شبه الجملة:

أوَّلُ ما يُسمع في جهنَّم التَّبكيت والإذلال

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾، على الفاعل ﴿خَزَنَتُهَآ﴾ للتَّخصيص؛ إذ إنَّ الكلام موجَّهٌ خصيصًا لهم

(1) الفارسي، حجة القراءات: 5/ 172، وابن خالويه، الحجة، ص: 311.
(2) مكي، الكشف عن وجوه القراءات: 2/ 241، ومحيسن، المهذب: 2/ 193.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 548.
(4) دعاس وآخران، إعراب القرآن: 3/ 147.

بغرضِ التَّوبيخ والإذلال، فأوَّلُ ما يواجهه الكافرون عند دخولِهم النّار، هو هذا الخطابُ المباشر، ممّا يزيد من وقع المفاجأة، وإلحاق الرُّعب في قلوبِهم، ولا يبعد للنّاظر وضوح ذلك الإيجاز في التَّعبير، الَّذي حقَّقه التَّقديم، في انسجامٍ بليغٍ مع السّياق، فالآيةُ تأتي في سياق مشهدٍ رهيبٍ، أُعلن فيه عن سوقِ الكافرين إلى جهنَّم، وتفتيح أبوابها لهم؛ استعدادًا للعذاب والنَّكال.

بلاغةُ استعمال مفردة الخزنة:

شدَّةُ إحكامِ الزَّبانية لجهنَّم كإحكام الخازن لبيت المال

اختار النَّظمُ الكريمُ لفظَ الخزنة للبوّابينَ والسَّجّانينَ لأهلِ النّارِ، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ وهم الزَّبانية غِلاظُ الأخلاقِ، شِدادُ القوى، وجاء استعمال هذه المفردة لبيانِ شدَّة حرصِ أولئك الملائكة على ألّا يخرجَ مِنَ النّار أحدٌ، كما أُطلِقَ على البوّاب هذا الاسم؛ إذا كان يخزِّن المال، ففيه تشبيهُ الكفّار في النّار بالمال في الخزنة، وذلك على سبيل الاستعارة التّهكّميّة، وهؤلاء الملائكة يحرسون أبوابَ جهنَّم؛ كي لا يخرجَ منها أحدٌ، ولما فيها مِنَ الدَّلالة على القوَّة والقسوة في مهمَّتهم، وتُظهر أنَّ اللّه قد أوكَل إليهم الأمانةَ في تنفيذ أمره، فالخازنُ لا يفرِّط في الأمانة، ودلالة هذا الاستعمالِ تُنبئ عن استحالة مغادرةِ النّارِ إلّا بإذنِ اللّه تعالى.

غرضُ الاستفهامِ وبلاغته:

إيقاعُ التَّوبيخ والتَّقريع لما يُقرِّره المخاطَب من عجيب التَّنكيل

جاء الاستفهامُ على وجهِ التَّقريعِ والتَّوبيخِ والتَّنكيلِ لأهل النّار في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[1]، واختيرتِ الهمزةُ مع (لم)؛ للدَّلالة على معنى الاستفهام التَّقريريِّ، وهذا مِن خصوصيات الاستعمال القرآنيِّ؛ إذ إنَّ الاستفهامَ التَّقريري استُعمل في جميع القرآن بأداة (لم) مسبوقة بـ (الهمزة)[2]، فالاستفهامُ ليس لطلب

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 118.
(2) السامرائي، معاني النحو: 4/ 198.

الإجابة، بل لتأكيد وقوعِ الأمر الَّذي لا يمكن إنكاره، و(لم) تُظهر نفيًا في الماضي، ما يعني أنَّ الرُّسل جاؤوا بالفعل، وبلَّغوا الرِّسالة، ممّا يجعل الحجَّة على الكافرين كاملة، والجمع بينهما يُبرزُ التَّقريع الشَّديد؛ إذ ذُكِّروا بأمرٍ لا مجال لإنكاره مع توبيخِهم على تقصيرِهم، والاستفهام يُضفي على سياق الآية إيجازًا بلاغيًّا، بكونه يجمع بين إقرار الحقائق الماضية وتوبيخ المكذِّبين، ليضاعف التَّأثير النَّفسي؛ حاملًا إيّاهم على إثارة النَّدم والاعتراف بالذَّنب، فهذا مشهدٌ يتمُّ فيه تذكيرهم بأنَّهم لم يستجيبوا لرسل من جنسِهم، كانوا يتلون عليهم آياتِ الله، وينذرونهم بعذاب الله.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع:

استحضارُ مشهدِ مجيءِ الرُّسُل لزرعِ الألمِ وتحريك النَّدم

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالمضارع: ﴿يَأْتِكُمْ﴾؛ للإخبارِ بما كان في الماضي على وجه الإثباتِ، فإنَّ المضارعَ إن تقدَّمَتْهُ همزةُ الاستفهام، وصار منفيًّا بـ (لم)؛ فهو يفيدُ الماضي المُثْبَت[1]، والتَّعبيرُ بالفعل ﴿يَأْتِكُمْ﴾ جاء لاستحضارِ مشهدِ مجيء الرُّسل، كأنَّه يحدثُ الآن، ممّا يزيدُ مِن تأثير التَّوبيخ والتَّقرير، كما يوحي باستمرار التَّبليغ وتكراره؛ ليؤكِّد أنَّ الحجَّة قائمةٌ عليهم بلا انقطاع، كما أنَّه يُشيرُ إلى قرب الرُّسل منهم، في مشهدِ الحساب، ممّا يُضاعف مسؤوليَّتهم، ويُضعف حجَّتهم بالنَّكير والتَّكذيب.

نكتةُ تنكير لفظ ﴿رُسُلٌ﴾:

كلُّ رسولٍ بلَّغ الرِّسالةَ فقد أقام الحجَّةَ على مدعوّيه

نُكِّر لفظ ﴿رُسُلٌ﴾ لتعظيم شأن الرُّسلِ، والتَّنويه بمقام النُّبوَّة، وأنَّ الرُّسل الَّذين أُرسلوا ليسوا مجرَّد أفرادٍ عاديّين، بل هم أصحابُ رسالةٍ عظيمةٍ، ومهمَّة واضحة، ممّا يزيد في ضخامة الحجَّة على أقوامهم، كما أنَّ التَّنوين يحمل دلالةَ الشُّمول والإطلاق والتَّكثير، فيشملُ كلَّ الرُّسل الَّذين جاؤوا على مرِّ العصور، دون تخصيصٍ

(1) الشنقيطي، العذب النمير: 2/ 265.

أو حصرٍ، لتَعظم مسؤوليَّة الأقوام في تصديقهم، كما أنَّه - أعني التَّنوين - أفاد الإشارة إلى أنَّ الرُّسلَ كانوا كثيرين ومتعدِّدين، ممّا يعكس أهمّيَّة الرِّسالة الَّتي حملوها والجهود الكبيرة الَّتي بذلوها في تبليغها للنّاس.

غرضُ وصفِ الرُّسُل:

جاء وصفُ الرُّسل بقولهِ تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾، وغرضُ ذلك التَّخصيص لإقامة الحجَّة، فالنَّعت إن كان وصفًا لنكرة؛ أفاد تخصيصها، فهُم من المدعوّين، وهو يُشير إلى قُربهم مِن أقوامِهم.

نوعُ (مِنْ) ودلالتها البلاغيَّة:

الـرُّسـل بعـضُ الأقـــوامِ وهـم منهم في الانتماء والانتساب

حرفُ (مِنْ) في قولهِ تعالى: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، يحتمل أن يكونَ للتَّبعيض، ويحتمل أن يكونَ للبيان، فعلى التَّبعيض، يكون حرف (مِنْ) مشيرًا إلى أنَّ الرُّسلَ بعضُ أفراد الأقوام أنفسِهم، أي: إنَّ الله اختارَهم مِنَ الجماعة نفسِها، فالمعنى: أنَّهم منكم، ومن بني جنسِكم، وأمّا إفادتُها البيان؛ فظاهرٌ في أنَّ هؤلاءِ الرُّسلَ ينتمون إلى المجتمع نفسه، فيُعرفون فيهم، ويخاطبونهم بلغتِهم، والغرض البلاغيُّ الَّذي مِن أجلهِ جيء بـ(مِنْ) في السياق، إزالةُ الأعذار؛ لتقوية الحجَّة عليهم، كما يلحظ في التَّعبير بـ(مِنْ) إبرازَ القرب والاتِّصال بين الرُّسل وأقوامهم، ممّا يجعل التَّكذيب أكثر ظلمًا.

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ﴾:

مهمَّة المرسلين تـــلاوةُ الآيـــات والإنذار

عبَّر النَّظمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ﴾، وهذه الجملةُ بتمامها: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ﴾ جملةٌ فعليَّةٌ في محلِّ رفع صفة لـ﴿رُسُلٌ﴾ في قوله: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أفادت توضيحَ الموصوفِ وتفصيلَهُ، ممّا يضيفُ معنًى إضافيًّا يخصُّ الاسم المنعوت، في هذا السّياق، وهو تسليطُ الضَّوء على خاصية معيَّنة للموصوف، وهي تحتملُ الحاليَّة؛ لأنَّ النَّكرة ﴿رُسُلٌ﴾

قد خصِّصت بـ ﴿مِّنكُمْ﴾، والنَّكرة إذا خصِّصت؛ تُعامل معاملة المعرفة، فجاز إتيانُ الحالِ منها، لتوضيحِ وصف الحالةِ الَّتي يكون عليها الموصوف، عند وقوعِ الفعل، والجملةُ الحاليَّة تضيف بعدًا زمنيًّا، يخصُّ وقوعَ الفعل وكيفيَّة تحقُّقه، وهذا التَّنوُّع يقدِّم رؤيةً مختلفة، وتفاصيل إضافيَّة، تساعد في فهْمِ الموقف، بشكل أفضل وتحقِّقُ التَّأثير البلاغي المطلوب.

بلاغةُ استعمالِ مفردة التِّلاوة دون القراءة:

جاء استعمالُ مفردةِ التِّلاوة في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ دون القراءة؛ لبيانِ أنَّ ما صنعه الرُّسُل الكرام هو التِّلاوة للآيات الإلهيَّة، فإنَّ التِّلاوة إذا أُطلقت؛ يُراد منها قراءة الآيات المنزَّلة مِنَ الله تعالى، وللإيماءِ إلى أنَّ هذه التِّلاوة قائمةٌ على التَّتابع والثَّبات في إسماع المدعوّين آياتِ الله تعالى، فهي قراءةٌ للآيات يتبع بعضها بعضًا، ففيه إشارةٌ إلى تكامُل الآيات المتلوَّة، وأنَّها ذاتُ معانٍ متتابعة متلاحمة متعاضدة، وهذا لا يكون لعمومِ القراءةِ.

آياتُ الله المتلوَّة متلاحمةٌ في معانيها متآخيةٌ في ألفاظها

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع ﴿يَتْلُونَ﴾؛ للدَّلالة على التَّكرار، فرسلُ الله تعالى كانوا يتلون آياتِهِ مرارًا وتكرارًا؛ لتصل إلى القلوب، وتُفهم بشكل أفضل، والتَّعبير بلفظ التِّلاوة فيه استشعارُ الفخامة لنقل رسالة السَّماء، وهذا هو الغالبُ في سياقات القرآنِ الكريمِ.

الرُّسُل لا يملّون من دعوةِ أقوامِهم

فنُّ التَّغليب:

آثرَ النَّظمُ القُرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ﴾ إسنادَ فعل ﴿يَتْلُونَ﴾ لضمير الجمع بدلًا من ضميرِ المفرد، ورسالة الله واحدة، لا تقبل التَّفرقة أو التَّفريق؛ إذِ الأنبياءُ أبناءُ عَلّاتٍ، أي: مِثلُ أولادِ عَلّاتٍ، وهمُ الإخوةُ لِأبٍ واحدٍ مِن أُمَّهاتٍ مُختلفةٍ، فهُم مُتَّفقون فيما

الرُّسلُ الكرامُ جماعة تتعاون في إبلاغ الآيات

يَتعلَّقُ بأُصولِ الدّياناتِ، كالتَّوحيدِ، والإيمانِ، وأُسنِدت التِّلاوة إلى جميع الرُّسل، وإن كان فيهم مَن ليس له كتاب، على طريقة التَّغليب[1].

نكتةُ تعديةِ فعل التِّلاوةِ بحرفِ الاستعلاء:

استُعمِل حرفُ الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾؛ لبيان استعلاءِ الرُّسل بالتِّلاوةِ، فإنَّ الآياتِ المتلوَّة نزلت من الأعلى، وشأنُها أن تكونَ بتلاوةِ مَن هو أعلى.

غرضُ تقديمِ شبه الجملة:

الإيماءُ إلى حرصِ الرُّسُل على أقوامِهم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ﴾ على المفعول ﴿ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾، لتخصيص المخاطَبين بالتِّلاوة، ممّا يُقوّي الحجَّة عليهم، ويُظهر أنَّهم محورُ الخطاب، كما أنَّ التَّقديم يشعر بقرب التِّلاوة منهم، فلا عذرَ لهم بعدم الفهمِ، أو الإعراض، وهذا التَّقديمُ يومِئ إلى عناية الرُّسُل بأقوامِهم، ومدى عنايته وحرصهم على إيمانِهم.

نوعُ إضافةِ الآيات إلى لفظ الرُّبوبيَّة ودلالتها:

تشريفُ الآياتِ وتعظيمُ حجّيَّتها

أُضيفتِ الآيات إلى لفظ الرَّبِّ في قولِهِ تعالى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾، والإضافةُ بمعنى (من)، أي: آياتٍ مِن ربِّكم؛ لتشريفِ الآياتِ، وبيان حجّيَّتها عليهم، ولرفعة تلك الآيات، وإبراز قداستها ومصدرها الأعلى، فهي كلامُ اللهِ تعالى، لا كلام الرُّسُل.

نكتةُ إضافةِ لفظ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير:

التَّوبيخُ الشَّديدُ على الجحود الصّادر عن العباد في حقِّ من أحسن إليهم

أُضيفَ لفظُ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير في قولِهِ تعالى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾، والإضافةُ بمعنى اللّام؛ للإشعارِ بمزيدِ النَّدامةِ والحسرة، فهي آياتُ ربِّهم وخالقهم ورازقهم ومدبِّر شؤونِهم، وهو الَّذي تولّاهم بالنِّعَمِ منذ خلقَهم، وعلى الرَّغم مِن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 70.

ذلك، كفروا به، وعصوا أوامرَهُ، إلّا أنَّكم عن آياتِه أعرضتم، وكان فيها لو أنَّكم سمعتُم، وأطعتم هدايتَكم، فجاءتِ الإضافةُ لتوبيخِهم على كفرِهم بربوبيَّة الله، فالإضافةُ تحمل توبيخًا صريحًا وتوكيدًا قويًّا للحجَّة عليهم.

نوعُ الواو ووظيفتها الرّابطة:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ للعطف؛ ربطًا للجملةِ بما قبلها، وإظهارًا لتتابع الأفعال في السّياق، والمعنى: أنَّ الرُّسلَ لا تقتصر وظيفتُهم على التِّلاوة فحسب، بل ينذرون أقوامَهم كذلك، أي: يحذرونَ مِن العواقب الوخيمةِ؛ إذا لم يستجيبوا للهداية، وأفادتِ الواو التَّعداد، أي: إنَّ الفعلَين (التِّلاوة والإنذار) مترابطان ومتكاملان، ممّا يعني: أنَّ التِّلاوة الَّتي فيها التَّدبُّر والتَّفكُّر، كانت بالتَّحذير والوعيد من عواقب تَرْكِ الهداية[1].

الإنـــذارُ ثـمـرة الـتِّـلاوة وجناح الدَّعوة

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

عبَّرتِ الآيةُ بالفعل المضارع (ينذرونكم) دونَ الماضي؛ لبيان أنَّ إنذارَهم كان مستمرًّا متجدِّدًا، ما دلَّ على حرصِ الأنبياء واجتهادهم في تبليغ الرِّسالة، والقيام بمهمَّة الدَّعوة.

دلالةُ ذِكرِ مفعولَي فعل الإنذار:

مفعولا فعلِ الإنذارِ في قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، وهما الضَّمير الكاف المتَّصل بالفعلِ، ولفظ ﴿لِقَآءَ﴾، يُشير إلى أنَّ الإنذارَ كان واقعًا عليهم على وجهِ الخصوص، ومحدَّدًا بأمرٍ جللٍ، وهو ما يعكس دقَّةَ الرَّبط بين المخاطَبين (الكافرين)، وموضوع التَّحذيرِ (اليوم الموعود)، ممّا يجعل الخطاب أكثرَ وضوحًا وتأثيرًا، وهذا الأسلوبُ يعبِّر عن عمقِ البلاغة القرآنيَّة الَّتي توظِّف البناءَ النَّحويَّ؛ لتعميق الأثر النَّفسي والمعنويِّ في المخاطَبين.

تـعـدُّدُ المفاعيل يُـضـفـي عـلى الإنـــذار قـوَّة نفسيَّة ومعنويَّة

(1) الدوري، دقائق الفروق، ص: 196.

نكتةُ تقديمِ فعل التِّلاوة على الإنذار:

المـوازنـةُ بين التَّرغيب والتَّرهيب في خطابِ المدعوّين

قُدِّم ذِكرُ فعل التِّلاوة على فعل الإنذار في قولِه تعالى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ﴾؛ لإبراز الرَّحمة والهداية في دعوة الرُّسل قبل الإنذار، فهُم إنَّما جاؤوا بالبِشارة والنِّذارة، والتِّلاوة تمثِّل الجانب الإيجابي، والدَّعوة للتَّفكُّر والتَّدبُّر، ممّا يُهيّئ النُّفوس لقبول التَّحذير، وفهْم عواقب الإعراض، وهذا التَّرتيبُ يعكس أسلوبَ القرآن، الَّذي يبدأ بالتَّرغيب عبر عرض آيات الله، ثم ينتقلُ إلى التَّرهيب بالإنذار، ممّا يوجد توازنًا في الخطابِ بين التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، ممّا يُعزِّز قَبول الرِّسالة، ولمّا كانت المتابعة بالتَّذكير أوقعَ في النَّفس؛ ذَكَرَ التِّلاوة أوَّلًا، ثمَّ الإنذار ثانيًا دليلًا على تقديم البشارة[1].

فائدةُ إضافة ﴿لِقَآءَ﴾ إلى ﴿يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾:

أصعبُ أيّام الشِّدَّةِ يوم دخول النّار

أُضيفَ لفظُ ﴿لِقَآءَ﴾ إلى ﴿يَوْمِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، والإضافة بمعنى اللّام أو في؛ ليكونَ التَّحذير أكثرَ قُربًا وتأثيرًا، حيث يشير إلى المبالغةِ في تعليق اليوم بهم وحدهم وبأفعالهم، كما تُبرز الإضافة مسؤوليَّتهم المباشرة عن الحساب، ممّا يضاعف شعورَ الرَّهبة والخوف من عاقبة أعمالهم، والآية تتكلَّم عن لقاءِ وقتِ دخولهم أبواب النّار لا عموم يوم القيامةِ.

وجهُ إضافةِ اليوم إلى الضَّمير:

يومَ دخولِ النّار مختصٌّ بكلِّ داخلٍ فيها

أفادت إضافةُ لفظِ اليوم إلى الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ الاختصاصَ بِهم؛ زيادةً في التَّقريع والتَّوبيخ والحطِّ منهم ومن مكانتهم، فكأنَّ عذابَ هذا اليوم عذابُهم دون غيرِهم، أو كأنَّ ذلك اليوم يومُ القيامة، وما يختصُّ بهم من عذابٍ وأهوالٍ، يومهم دون سواهم، ولا ينافيه كونه في ذاتِه غير مختصٍّ بهم، إنَّما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 565.

جُعِل لهم للاختصاص بهم[1]، فالإضافةُ بمعنى اللام، فهو يومٌ لهم في شدَّته وغلظته، وقد جاء استعمالُ اليوم والأيّام مستفيضًا في أوقات الشِّدَّة.

غرضُ التَّعبيرِ باسم الإشارة للقريب:

الإشـــارةُ إلى المشاهدِ أشدُّ من الوصفِ المجرَّد

استعمل النَّظْمُ الكريمُ اسمَ الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾، في قوله تعالى: ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؛ لتصوير المشهدِ الَّذي يكون فيه أولئك الَّذين كفروا، فهُم على أبواب جهنَّم يعانون الشِّدَّة وهول الموقف، والخزنة يُشيرون إلى الوقت الذي هم فيه، ويقفون على أبوابِ جهنَّم ينتظرون الدُّخول، وإنَّما أشاروا بـ ﴿هَٰذَا﴾؛ لما في الإشارةِ من مزيَّةٍ ترجِّح على التَّشخيص[2].

علَّةُ فصل جملة ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ عن السّابق:

الاســتـئـنـاف البيانيُّ تجليةٌ للمحاورات بين الأطراف

جاءت جملةُ: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ مفصولةً عمّا سبقها، وعلَّة هذا الفصل شِبْهُ كمال الاتِّصال، وهو كونُ الجملة الثّانية قويَّة الارتباط بالأولى؛ لوقوعِها جوابًا عن سؤالٍ يُفهم مِنَ الجملة الأولى، فتُفصل عنها، كما يُفصل الجوابُ عن السُّؤال[3]، ولو جاءتِ الواو هنا؛ لما كان المعنى مستقيمًا؛ إذ وقوعُ الجملة جوابًا لسؤال اقتضته الأولى موجبٌ للفصل، كيف لا؟ والسُّؤال والجواب إن نُظِرَ إلى معنييهما؛ فبينهما شبهُ كمالِ الاتِّصال، وإن نُظِرَ إلى لفظيهما؛ فبينهما كمالُ الانقطاع؛ لكون السُّؤال إنشاءً، والجواب خبرًا، وإنْ نُظِرَ إلى قائلهما؛ فكلٌّ منهما كلامُ متكلِّم، ولا يُعطَف كلامُ متكلِّمٍ على كلام متكلِّمٍ آخرَ، فعلى جميع التَّقديرات الفصل متعيَّن[4].

نوعُ الواوِ ومعناها:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 286.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 566.
(3) السبكي، عروس الأفراح: 1/ 484، وعصام، الأطول: 1/ 57.
(4) الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: 2/ 504.

للاستئناف، وتأتي لاستئناف معنًى جديدٍ، يوضِّح سببًا أو نتيجة لما سبق، وفي هذا السّياق انتقالٌ مِن اعتراف الكافرين بالرُّسل، وآيات اللّه، إلى تقريرِ حتميَّة وقوعِ العذابِ عليهِم، بعد ثبوت كفرهم، ممّا يُبرز فصلًا دقيقًا بين الاعتراف والعاقبة، والجملة الَّتي بعد الواو مستقلَّة في معناها، عن الجملة السابقة: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾؛ إذ إنَّ مضمونَها ليس معطوفًا، بل يُبيِّن نتيجةً منفصلة عن الحوار السابق.

الاستئنافُ يُبرز فصلًا دقيقًا بين الاعترافِ والعاقبة

نكتةُ استعمال (لكن) بعد الواو:

حرف (لكن) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ﴾ لا يُفيد عطفًا، بل هي حرف مخفَّف مهملٌ؛ لأنَّ ما بعدها جملةٌ، فهي أفادتِ الابتداء، والاستدراك والتَّحقيق[1]، وتُبيِّن إضرابًا عن التَّوقُّع، أو رفع وهم قد ينشأ لدى السّامع، وهذا السّياق الَّذي فيه اعترافُ الكافرين بذنوبِهم، قد يُتوقَّع في أثنائِه العفو عنهم، إلّا أنَّ هذا الاستدراكَ قد حسم الأمر، ونفى ذلكم التَّوقُّع، فالاعترافُ لم يعد نافعًا لهم؛ لأنَّ حُكمَ العذاب قد تحقَّق، وثبت عليهم؛ بسبب كفرِهم وإصرارِهم، والجمع بين (الواو ولكن) يُبرز انتقالًا من موقفِ الكافرين بعد اعترافِهم، إلى تقرير حتميَّة وقوع العذاب اللّاحق بهم بفوت وقت العفو، وانتقالهم إلى استحقاق العقوبة لعنادِهم وكفرِهم.

توهُّمُ العفوِ يردُّه حرف الاستدراك

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿حَقَّتْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ ﴿حَقَّتْ﴾، في قوله تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾، وذلك في معرض إخبارِ الكافرين بأنَّ ما هم مُقْدمونَ عليه إنَّما هو حقٌّ ثابتٌ، فقرَّر هذا المعنى بكلمة ﴿حَقَّتْ﴾، وهي مشتقَّةٌ من الحقِّ الدّالِّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه، فالحَقُّ نقيضُ الباطلِ، يُقالُ: حقَّ الشَّيءُ: وجبَ[2]، ولمّا كانت الأحداث

الحقُّ متحقِّقٌ حتمًا وصدقًا كوقوع ما وقع

(1) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/ 290، والسامرائي، معاني النحو: 1/ 307.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).

والمشاهد - الَّتي تضمَّنتها هذه السّورة - متحقِّقةَ الوقوعِ مقطوعًا بحصولِها؛ فقد كانت بمنزلة تحقُّق ما قد مضى.

بلاغةُ الإسنادِ المجازي:

أُسنِدَ فعل ﴿حَقَّتْ﴾ إلى ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾، وهذا الإسنادُ مجازيٌّ عقليٌّ؛ إذ الكلمة لا تحقُّ بذاتِها، وإنَّما ما أوعد الله به عباده أن يكونَ في الآخرة هو الَّذي حقَّ، ونكتةُ الإسناد المجازيِّ بيانُ أنَّ كلمةَ الله ووعيده لا يتخلَّفان أبدًا، فما كان وعيدًا في الدُّنيا؛ صار حقًّا حتميًّا في الآخرة.

وعيدُ اللهِ تعالى ثابت الوقوعِ حتميُّ الوجوب

فصاحةُ التَّعبيرِ المجازي في لفظ ﴿كَلِمَةُ﴾:

أُضيفت ﴿كَلِمَةُ﴾ إلى لفظ ﴿ٱلْعَذَابِ﴾؛ لتكونَ هذه الجملةُ كنايةً عن حكم العذابِ على الكافرين، فإنَّ اللّهَ عندما يقضي بين العبادِ، يحكم على الكافرين بالعذاب، أو يكون الحكمُ قد شُبِّه بالكلمة، وصرَّح بالكلمة على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة، والاستعارة أبلغُ من الحقيقة لما فيها من بيان أنَّ الحكمَ كلمةٌ قد صدرت في حقِّ أهلها، وهي قد حقَّت صدقًا وعدلًا، أمرًا وقضاءً.

الحكمُ إذا صدر؛ أصبح كلمةً نافذةً صدقًا وعدلًا

معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلْعَذَابِ﴾:

جاءتِ (ال) في قول المولى ﷻ: ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ للجنس، أي: إنَّ العذابَ المشار إليه هو عذابٌ شامل، بمعنى عذابٍ لا يتجزَّأ، ويشمل جميعَ ألوان العذابِ في الآخرة الَّتي استحقَّها الكافرون؛ نتيجةَ تماديهم في الكفرِ والجحودِ؛ لتضيفَ طابعًا مِنَ العموم، بحيث يُفهم مِنَ الآية أنَّ العذاب يتناول العقوبات، والعذاب الكامل والمطلق.

العذابُ الَّذي ينتظر الكافرين ذو أصنافٍ لا تتناهى

نكتةُ استعمالِ حرف الاستعلاء:

استعملَ النَّظمُ الكريم حرف الاستعلاءِ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ للإشارة إلى استعلاءِ العذاب فوقَهم، وإحاطته بهم، ليُرشِّح معنى ثبات العذاب.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

العذابُ جزاءُ الكافرين بجميع أصنافِهم

جاء السّياقُ القُرآنيُّ في الآية الكريمة: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بجمع الكافرين محلّاةً بالألف واللام المفيدة للجنس؛ لإفادة شمول جنسِ الكافرين وعمومِهم من غير استثناء، وهذا يعني أنَّ العذابَ لم يقتصر على فئةٍ أو طائفة معيَّنة، بل هو عذابٌ عامٌّ، لكلِّ مَن كفر في الزَّمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

براعةُ العدولِ عن (الذين كفروا) إلى ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

تغايرُ التَّعبير تابعٌ لتغاير الأغراضِ البيانيَّة

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ الاسم الظاهر في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، دون الموصولِ، كما صُدِّرت به الآية القُرآنيَّة؛ لتأكيد وصفِ الكفرِ كصفةٍ دائمةٍ وملازمةٍ لهم، فالتَّعبيرُ بـ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يحمل دلالةً عامَّةً وشاملةً، ومبدأُ الآية أشار إلى علَّةِ سوقهم إلى جهنَّم، وهو كفرُهم - كما سبق بيانه - وعليه فبدأتِ الآيةُ بتعليل سوق الكافرين، وانتهت بوصفِهم، فكأنَّه قيل: إنَّما سيقوا إلى جهنَّم؛ لأنَّهم كفروا في الدُّنيا، وحقَّت عليهم كلمة العذاب؛ لأنَّهم اتَّصفوا بالكفر وصفًا ثابتًا لهم.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

الجمعُ بين الوصف بالكفرِ وعلَّته

أظهر النَّظمُ الكريم وصفَ الكافرين دونَ الإضمارِ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فلم يقل: (ولكن حقت كلمة العذاب عليهم)؛ وذلك لإظهار وصفِهم الَّذي استحقّوا به العذابَ، وهو الكفرُ، فهو قريبٌ من غرض استعمال الاسم الموصول في الاستشهادِ عليهم بما في حيِّز الصِّلةِ، فيكون الإظهارُ لإبراز الوصفِ بالكفر، فيشملُ جميعَ الكافرين، مع الإيماء إلى علَّةِ العذاب.

جزالةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

جاء قولُهُ تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ﴾ مفصولًا

عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ، وهذا الفصل يعبِّر عن الانتقال الحاسم والمباشر بين المشهدين، فعدمُ استخدام الواو استئنافٌ في غاية الجزالة والفخامة، لقطع كلِّ رجاءٍ أو فرصة للمراجعة.

عند تحقُّقِ الجزاء ينقطع الرَّجاء

نكتةُ بناءِ فعل ﴿قِيلَ﴾ للمفعول:

جاء فعل ﴿قِيلَ﴾ في قول الحق ﷻ: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ مبنيًّا للمفعول؛ وذلك للعناية بمضمون القول نفسِهِ، وهو (أمر الدُّخول إلى جهنَّم)، دون الانشغال والاهتمام بالقائل، وإن كان القائل: هم خزنتُها[1]؛ لأنَّ العِبرةَ هنا بالقول لا بالقائل، وبناء الفعل للمفعول فيه تهويلٌ وتعظيمٌ للمشهدِ.

إخفاءُ القائلِ يضفي على المشهد تهويلًا وتعظيمًا

غرضُ الأمر ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ﴾:

الأمرُ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، فيه إلزامٌ فعليٌّ، لكنَّه خرج عمّا وضع له؛ فإنَّه لا مناصَ للمخاطَبين إلّا التَّنفيذ، لا لأنَّهم قد استجابوا للأمر، بل لأنَّ الأمر واقعٌ - لا محالةَ - وليس لهم خيار في ذلك، وعليه فيكونُ الأمر خرج عن حقيقته إلى غرضٍ بلاغي، وهو التَّوبيخ والتَّبكيت والتَّقريع والتَّهوين، فالكفرةُ داخلون جهنَّم على كلِّ الأحوال، وهذا كقول الله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٤٠﴾ [فصلت: 40]، وكقول القاتلِ للمقتول عند النَّزع: مت، فهو ليس أمرًا بقدر ما أنَّه محمولٌ على غرضٍ آخر.

خروجُ الأمرِ عن حقيقتِهِ إلى التَّقريعِ والتَّوبيخِ

بلاغةُ المجازِ في ذكر الأبواب لا محلها:

آثرَ النَّظمُ الكريم جعْلَ الدُّخول إلى الأبواب لا إلى جهنَّم في قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، فلم يقل: (ادخلوا جهنَّم)، مع أنَّ ما يقتضيه الظّاهر هو أنَّ الدُّخولَ يكون لجهنَّم لا للأبواب، فالأبواب يُدخل منها، ولا يُدخل فيها، ووجهُ ذلك أنَّ الأبواب تُطلق على مكان الدُّخول، فأُطلق البابُ، وأُريد محلُّ الباب عند فتحهِ،

تصويرُ مشهد الكفّار على أبواب جهنَّم مأمورين في دخولها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 71.

والمعنى: ادخلوا من المكان الَّذي كانت الأبوابُ فيه مغلَّقة، فأطلق البابَ، وأراد محلَّه من باب المجاز، ونكتة ذلك تصويرُ مشهدهم، وهم أمام الأبواب قبل فتْحِها، ثم إذا ما فُتِحت؛ قيل لهم ما قيل، ثم أُمِروا بالدُّخول من مكان الأبواب بعد فتحها، فهُم شاهدوها مغلَّقةً، وشاهدوها مفتوحةً، ثم أُمروا أن يدخلوا مِن حيث كانت الأبواب مغلَّقة، فهو مجازٌ مرسل علاقته الحاليَّة، أو باعتبار ما كان.

وجهُ إضافة ﴿أَبۡوَٰبَ﴾ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾:

أُضيفت أبوابٌ إلى جهنَّمَ في قولهِ تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، والإضافةُ تحتملُ أن تكونَ بمعنى اللام، فهي أبوابٌ لجهنَّم، وتحتمل أن تكونَ بمعنى (من) أي: بعض أبواب جهنَّم.

نكتةُ استعمالِ لفظ ﴿جَهَنَّمَ﴾:

جهنَّمُ الاسم العَلَم والنّار جزءٌ منها

استعمل النَّظمُ الكريم اسم ﴿جَهَنَّمَ﴾ دون النّار؛ لأنَّها الاسمُ العَلَمُ المشتهر على المكان الَّذي سيُعذَّب فيه الكافرون، فهي أعمُّ من النّار، فالنّارُ في سياقات من الذِّكر الحكيم جزءٌ من جهنَّم، ففيه مزيدُ ترهيبٍ وتهويل لما سيكون فيها، وهذا التَّصريح بجهنَّم، يحمل دلالةً يظهرها السّياق، فهو يدعو إلى استحضارٍ أوضحَ لصورة العذاب، لافتًا الأنظار والأسماع إلى ما تحملُهُ لفظة ﴿جَهَنَّمَ﴾ من معانٍ، فهي البعيدةُ القعرِ، مأخوذة مِن قولهم: هذا بئرٌ جِهنّام قعره بعيد، فكذلك النّار، فهي عميقةٌ وبعيدة القعر[1]، فجهنَّمُ هي مكان العذابِ والتَّعذيب، واختُصَّ لفظُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ بالتَّعبير عن عذاب الآخرة حصرًا، فلم تُستخدم - ولو مجازًا - في التَّعبير عن أيِّ غرض من أغراض الدُّنيا، كما هو الحال في لفظ (النار).

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (جهم).

غرضُ التَّعبير باسم الفاعل:

جاء التَّعبيرُ باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾، و﴿خَٰلِدِينَ﴾ في موقع حالٍ مِنَ الضَّمير المتَّصل في ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ﴾؛ للتَّنبيه على الدَّوام المُكتَسب من لفظ الخلود والصيغة.

نوعُ الفاءِ ودلالتها:

سـوءُ عـاقـبـةِ مثوى المتكبِّرين

الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ هي فاء الاستئناف[1]؛ إذ تدلُّ على البدءِ بجملة جديدةٍ؛ إظهارًا للمفاجأة والنَّتيجة، فالفاءُ هنا تفصلُ بين الجملتَين؛ إذ تأتي لتأكيد ما قبلها، وتشير إلى أنَّ العاقبةَ الَّتي سيتلقّاها المتكبِّرون هي عاقبة سيِّئة تتبع ما ذُكِر مِن أفعالهم، كأمر حتميٍّ لما قبله، ممّا يعزِّز مِن شدَّة التَّحذير، ويُبرز المعنى في صورة قاطعةٍ، بأنَّ مكان المتكبِّرين هو سوء العاقبة، وهو مثوًى سيِّئٌ.

نكتةُ حذف المخصوص بالذَّمِّ:

حذْفُ المخصوصِ بالذَّمِّ في قوله تعالى: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ للإيجاز، وهو جهنَّم[2]، وحذْفٌ لزيادة أثر الذَّمِّ، وليكون ما يقرع سمع المخاطَب استشعار فظاعة المثوى.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾:

جاءتْ كلمةُ ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ معرَّفةً بالألف واللام، وهي هنا لام الجنس؛ لتفيدَ العموم والشُّمول، أي: إنَّها تشمل كلَّ مَن يتَّصف بصفة الكِبر.

نكتةُ اختيارِ لفظ ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ دون (الكافرين):

التَّكبُّر علَّةُ الكفر وسبب الهلاك

آثر النَّظمُ الكريم ذِكرَ وصف الكِبر على وصف الكفرِ المتقدَّم ذِكرُهُ في السّياق في قوله تعالى: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، فلم

(1) درويش، إعراب القرآن: 8/ 448.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 71.

يقل: (فبئس مثوى الكافرين)؛ للدَّلالةِ على أنَّ التَّكبُّر على الله في الدُّنيا، بالعدول عن توحيدِه، وإفراد الألوهيَّة له، هو السَّبب وراء الكفر، فالكفرُ يبدأ بالتَّكبُّر[1]، فهو تذكيرٌ بعلَّة كفرِهم بالله تعالى، وهو التَّكبُّر، ففيه ردٌّ آخرِ الآيةِ في ذِكر علَّة الكفر، على صدرِها الَّذي ذكرَ علَّة السَّوقِ، وهو الكفر.

❁ الفُروقُ المعجميَّة:

الزُّمرة والشِّرذمة والشِّيعة:

الزُّمرةُ الجماعة التالية لمثلها، والشِّرذمة القليلة المحتقرة، والشِّيعة المتناصرة

الزُّمرَةُ: هيَ الجَماعَةُ القَليلَةُ؛ ومِنهُ قيلَ: شاةٌ زُمرَةٌ قَليلَةُ الشَّعرِ، واشتِقاقُ الزُّمرَةِ مِنَ الزَّمرِ، وهوَ الصَّوتُ؛ إذِ الجَماعَةُ لا تَخلو عَنهُ غالِبًا، والزُّمَرُ الأفواجُ المُتَفَرِّقَةُ[2]، والزُّمرة تُطلق على الجماعات المتتالية.

والشِّرذِمَةُ: هيَ القَليلُ مِنَ النّاسِ، فالذّالُ زائِدَةٌ، وإنَّما هيَ مِن شَرَمْتُ الشَّيءَ؛ إذا مَزَّقْتَهُ، فَكَأنَّها طائِفَةٌ انمَزَقَتْ، وانمازت عَنِ الجَماعَةِ الكَثيرَةِ[3]، ويلحظ في إطلاق الشِّرذمة على بقيَّة الجماعة لضعفها وهوانها؛ أخذًا مِنَ الكلام عن الثَّوب الشَّراذم المتقطِّع البالي، ومنه قولُ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤﴾ [الشعراء: 54]، أي: قطعة وبقيَّة؛ لأنَّ فرعونَ أضلَّ منهم الكثير، فبقيت منهم شِرذمة، أي: قطعة[4].

والشِّيعَة: مِنَ الفعل (شيع)، وهو يَدُلُّ عَلى مُعاضَدَةٍ ومُساعَفَةٍ[5]، والشِّياعُ: الانتشارُ والتَّقوية، يقال: شاع الخَبر، أي: كثر، وقوي، وشاعَ القومُ: انتشروا، وكثروا، وشَيَّعْتُ النّار بالحَطَبِ: قوَّيتها، والشِّيعَةُ:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 338.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 146، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 286.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرذمة).
(4) العسكري، الفروق، ص: 281.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شيع).

من يتقوّى بِهم الإنسانُ، وينتشرون عنه، ومنه قيل للشُّجاع: مَشيعٌ، فشيعَةٌ وشيَعٌ وأشياعٌ، هي لقوم يتشيَّعون، أي: يهوون أهواءَ قومٍ، ويتابعونهم، وشيعةُ الرَّجلِ: أصحابُهُ وأتباعه، وكلُّ قومٍ اجتمعوا على أمرٍ فهُم شيعةٌ، وأصنافُهم: شيَعٌ، قال الله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: 54] وقال تعالى: ﴿*وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ [الصافات: 83][1].

(1) الراغب، مفردات: (شاع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»